

الفلسفة اليونانية - الجزء الثالث

سقراط (469 - 399 ق.م)

أشهر فيلسوف يوناني كلاسيكي، يعتبر مؤسس الفلسفة الغربية على الرغم من أنه لم يترك أية نصوص مكتوبة، وكل معرفتنا به تعود في أصلها إلى ما حكاه تلاميذه عنه وبخاصة أفلاطون الذي أجرى على لسان سقراط حواراته الشهيرة لدرجة أننا نستصعب أحيانا تمييز آراء الأستاذ من التلميذ.

وبخلاف سابقه من الفلاسفة القدامى لم يهتم سقراط كثيرا بالطبيعيات (علوم الطبيعة) بقدر ما كان يبدي اهتماما بالغاً بمجالي علم الأخلاق والسياسة . وإليه ينسب ما سمي لاحقا المنهج السقراطي، وهو منهج يستخدم النقاش والحوار، كما أنه ذو طابع بيداغوجي تعليمي يقوم على طرح مجموعة من الأسئلة، ليس فقط بهدف الحصول على إجابات فحسب، وإنما كوسيلة لتشجيع رؤية الموضوع من زوايا عدة والوصول لفهم عميق بعيدا عن التلقين. لقد قام سقراط بإسهامات مهمة وخالدة في مجالات المعرفة والجدل المنطقي، وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويا حيث صارت أساسا لمدارس الفلسفة الغربية.

بدأ سقراط حياته بصناعة التماثيل مثل أبيه، وأنهاها أعظم فيلسوف يوناني بشهادة كهنة معبد دلفي الذين وصفوه بأنه أحكم أهل زمانه، كان متواضعا يمشي يعلم الناس بالأسواق والساحات العامة، ولم يكن يدعي المعرفة أو الإلهام بالآلهة، وإنما كان يدخل في جدل مع محدثه ليظهر تناقضات الأحكام المسبقة التي يستند إليها محاوره في الحديث.

ولأنه كان سياسيا ساخرا ولاذعا في نقده، ولأنه لم يكن معجبا بالديمقراطية التي جلبت الغوغاء إلى الحكم، فقد جلب لنفسه عداوة الجميع، ولم يقف بجانبه إلا قليل من تلاميذه المخلصين من الشباب الذين أعجبوا بالأفكار الجديدة.

نجح خصومه السياسيون في اتهامه أمام محكمة المدينة بإنكار آلهة اليونان المبجلة، وبإفساد عقول الشباب، وبال دعوة إلى آلهة جديدة . ! وعندما مثل أمام القضاة لم يستعطف ولم يضعف، وإنما نفى ما نسب إليه بكبرياء، وقد حكم القضاة عليه بالإعدام بالسسم، تقبل سقراط الحكم بهدوء ورفض الهروب من السجن الذي اقترحه عليه أصدقاؤه ومريده، وفي الموعد المحدد تناول سم الشوكران وشربه بهدوء ومات في سن السبعين. !

لقد عرفنا سقراط من خلال تلميذه أفلاطون فيلسوف المثالية الذي قدم معلمه في صورة "مثل أعلى، جهبذ في الفلسفة، قديسا، ومدرسا، أدين بالهرطقة وحكم عليه

بالموت بسبب آرائه". ومع ذلك، فإننا لا نعرف على وجه اليقين من كان سقراط الحقيقي وما هي أفكاره الأصلية التي كان يعلمها لمريديه.

لقد وردت تفاصيل حياة سقراط من ثلاثة مصادر : حوارات أفلاطون وحوارات زينوفون وهما من أنصاره، ومن مسرحيات أريستوفانيس وهو من أعدائه . وقد وصف سقراط بأنه كان يفضل الحوار الشفوي المباشر وليس الكتابة.

في مسرحية السحاب لأريستوفانيس وصف سقراط كذلك بأنه مهرج كان يعلم تلاميذه كيف يتملصون من الديون، وهي صورة كوميدية ساخرة تفتقر للموضوعية والواقعية . لقد كان سقراط من الناحية الجسدية غير جذاب وكان قصير القامة، وبعض المصادر أشارت إلى أنه لم يكن يعمل، وهو أمر شائع نظرا لاحتقار المفكرين اليونان للعمل اليدوي واعتباره من شيم العبيد . لكن أفلاطون يشير إلى أن سقراط قد خدم في الجيش الأثيني خلال ثلاثة معارك على الأقل أظهر فيها الشجاعة والبراعة، في عام 406 ق م كان سقراط عضوا في مجلس الشيوخ لأثينا، وكانت له فيه مواقف سياسية مشهودة ساهمت في قرار إعدامه لاحقا.

لقد عاش سقراط في الفترة الانتقالية بين ازدهار الحكم الأثيني وانهياره حينما تلقى هزيمة أمام مدينة أسبرطة وحلفائها في معركة البلوبونيز، وانقلبت التوازنات السياسية رأسا على عقب.

لقد كان موقفه كناقذ اجتماعي وأخلاقي وسياسي أكثر المناحي التي أثارت السخط عليه . فبدلا من أن يؤيد الوضع الراهن ويقبل بسيادة الأعمال اللاأخلاقية، عمل سقراط على تقويض الشعار الجماعي الذي رفعه الناس وشاع في اليونان خلال تلك الفترة، ألا وهو "إن القوة تصنع العدل". وقد بدأت مشاكل سقراط في أثينا عندما سأل كريفون صديق سقراط مهبط الوحي في مدينة دلفي : هل يوجد بين الناس من هو أعقل من سقراط وأكثر حكمة منه ؟ فأجاب مهبط الوحي بأنه ما من شخص أكثر حكمة من سقراط . كان سقراط يعتقد بأن ما قاله مهبط الوحي يحوي قدراً كبيراً من التناقض، لأنه كان يعتقد أنه ليس لديه أية حكمة على الإطلاق . فقرر أن يحل هذا اللغز بأن يدنو من الرجال الذين كان أهل أثينا يعتبرونهم حكماء مثل رجال الدولة والشعراء والقادة العسكريين، وذلك كله كي يفند رأي مهبط الوحي . وحينما شرع سقراط في طرح مجموعة من الأسئلة عليهم توصل إلى أن هؤلاء الحكماء هم في الحقيقة غير حكماء . حينئذ أدرك سقراط أن دلفي كان محقا في رأيه، إلا أنه بقي مصرا على أنه غير حكيم، وبالتالي، ومن هذا التناقض، يكون هو الأكثر حكمة فقط لأنه الوحيد الذي أدرك جهله في حين بقي الآخرون مخدوعين في أنفسهم . وهذه الحكمة التناقضية التي

توصل إليها أظهرت أبرز الرجال الأثينيين الذين تحاور معهم كحمقى، وبالتالي انقلبوا عليه واتهموه عند أول فرصة.

يذكر أفلاطون أن سقراط اختار البقاء ومواجهة الإعدام لعدة أسباب أبرزها:

- اعتقاده أن الهروب يشير إلى خوفه من الموت، والخوف لا يليق بالفيلسوف الحقيقي.
- لو هرب من أثينا فلن تلقى تعاليمه أي نجاح في مدينة أخرى فأثينا هي عاصمة الفكر والحكمة.

- أنه وافق منذ البداية على أن يعيش في أثينا ويخضع لقوانينها، ولو هرب فهذا يعد خرقا للعقد الاجتماعي الذي يربطه بالدولة والمجتمع.

- بلوغه سن 71 سنة ، وهي سن كبيرة لا تسمح له بتحمل حياة المطاردة والنفي.
وقد تم وصف وفاة سقراط بدقة في نهاية حوار فيدون لأفلاطون . وهو وصف مؤثر، ويعتبر من آيات الإبداع الأدبي الكلاسيكي.

أفكار سقراط الفلسفية:

على الأرجح تتمثل أكثر إسهامات سقراط أهمية في الفكر الغربي في منهج الجدل والتداول القائم على مبدأ الحوار، وقد قام سقراط بتطبيق هذا المنهج في دراسة مفاهيم أخلاقية أساسية وشائعة الاستعمال مثل الخير والعدالة والفضيلة، فلحل مشكلة ما يتم تحليلها إلى مجموعة من الأسئلة، والتي تعمل إجاباتها تدريجيا على الوصول إلى الحل المنشود . ويتجلى تأثير هذا المنهج بشدة اليوم في استخدام المنهج العلمي (التحليل والتركيب) . ويوصف المنهج السقراطي بأنه منهج سلبي قائم على التخلص من الافتراضات غير الصحيحة، والسعي نحو الافتراضات الجيدة، مع الحرص على عدم الوقوع في التناقضات، وقد تم تصميم هذا المنهج بحيث تتم مراجعة الاعتقادات وتحديد مدى صحتها بشكل دائم.

اشتهر سقراط كذلك بطرحه للأسئلة دون الإجابة عنها مما كان يثير محاوريه . لكن أكبر انجاز ينسب له هو صراعه مع المذهب السوفسطائي الشعبي.

غالبا ما كان سقراط يذكر أن حكمته تتجلى في معرفته بمدى جهله، وكان يؤمن بأن ارتكاب الأخطاء هو نتيجة للجهل . الشيء الوحيد الذي ادعى سقراط أن لديه معرفة به هو فن الحبّ والذي ربطه بمفهوم محبة الحكمة، أي الفلسفة . لم يدع أنه حكيم ولكنه أدرك الطريق الذي لا بد أن يسلكه محب الحكمة . إنه يرشد الشخص الذي يجيب عن أسئلته إلى تصور أوضح للحقائق، فمن الأنسب أن ينظر لدوره كدور القابلة وهي مهنة أمه، فهو لا يضع النظريات ولكنه يساعد الآخرين على وضع نظرياتهم، كما يحدد

ما إذا كانت هذه النظرية مجدية أم لا، فالقابلة قد تكون عاقرا ولكنها تملك الخبرة والمعرفة لتساعد الأمهات على الإنجاب.

يشارك سقراط مع السفسطائيين في شيء واحد وهو تركيز فلسفته على الإنسان والابتعاد عن التفكير في الطبيعة أو الرياضيات، وقد اتخذ المقولة الشهيرة المنحوتة على معبد دلفي "أعرف نفسك بنفسك" شعارا لفلسفته، حيث إن الفلسفة الجديرة عنده هي التي تتخذ من الإنسان موضوعا لها، وليس الطبيعة والأشجار والحجارة والنجوم كما فعل الفلاسفة الطبيعيون قبله . ولكنه من ناحية أخرى كان ضد السفسطة من حيث إنها تنفي وجود أية موضوعية، وتقول باستحالة المعرفة، وتخرب كل بناء أو مقولة وتنفي كل حقيقة، إلا الحقيقة الشخصية "الإنسان مقياس كل شيء"، لذلك كان على سقراط أن يؤسس للمعرفة المبنية على العقل باعتبار العقل هو الملكة المشتركة بين جميع البشر، ومن خلال العقل وحده يمكننا الوصول إلى ثوابت عامة موضوعية، إذن الحقائق ثابتة طالما هناك مقياس محدد لها، ودفعه هذا إلى التركيز في نقاشاته على مسألة التعريف أو الحدود، أي المفاهيم، لأن عامة الناس يستخدمون الكلمات أو المصطلحات دون أن يفكروا فيها أو أن يسعوا لتحليل استخدامهم لها.

الإنسان لا يستطيع أن يعمل الخير وهو يجهل ما هو الخير، وكل عمل يصدر عن غير علم بماهية الخير فهو ليس خيرا ولا فضيلة، وليس هناك شر إلا من جهة الجهل، فلا يمكن أن يعلم الإنسان ما هو الشيء الخير أو الصالح ولا يفعله، فكل إنسان بطبيعته يقصد لنفسه الخير ولا يمكن أن يريد لها الشر والضرر، إلا إن كان جاهلا، فالخير في النهاية هو علم والشر في أصله هو جهل.

لذلك يمكن تعريف الفضيلة عند سقراط بأنها المعرفة أو الحكمة . وتحديد ما يقود الإنسان إلى الخير الأسمى.

آمن سقراط بوجود إله واحد، وأنكر الوثنية والتعدد، واعتبر الموت مجرد عتبة للانتقال وليس عدما، وقد أتى سقراط بركيزتين أساسيتين في الفلسفة، نظرية المعرفة، وتأسيس الأخلاق، حيث سعى إلى انقاذ الفلسفة من فخ الشك والتخبط والإنكار التي تسبب بها السفسطائيون.

سعى سقراط إلى إقامة فعل الفلسفة على أساس العقل والمنطق، وإقامة الأخلاق على التفاهم الاجتماعي والمصلحة العامة وليس على الدين أو المعتقد.

دعا سقراط الإنسان إلى تطوير ذواتهم والارتقاء بالنفس بدلا من السعي وراء الثروة المادية . وكان دائما يدعو للصداقات الحقة وعلى الإحساس بالمجتمع ومشكلاته، وقد تجلى تطبيقه لهذه المبادئ في رفضه الهروب من حكم الإعدام الذي أصدرته في حقه

المحكمة باسم الشعب، وفي مشاركته الفعالة في المعارك ضد أعداء مدينته.

كما آمن سقراط بجدوى الفضيلة، وهي جملة السمات التي يجب أن يتحلى بها كل إنسان، وعلى رأسها الفضائل العقلية . وهي أثنى ما يملكه الإنسان.

سقراط كان يؤمن بأن المثاليات لا يستطيع فهمها إلا الإنسان الحكيم، مما يجعل الفيلسوف هو الشخص الوحيد المناسب لاستلام الحكم . واعترض سقراط بشكل صريح على الديمقراطية التي حكمت أثينا في ذلك الوقت.

ومن المحتمل أن معظم التعاليم المضادة للديمقراطية المنسوبة لسقراط هي في الأصل من تلميذه أفلاطون الذي لم يتمكن يوما من تجاوز غضبه لما فعل حكم الشعب بأستاذه . وينبغي التأكيد أن سقراط كان يعترض أيضا على الحكم الدكتاتوري.

ربما كان من أكثر الأشياء غرابة هو اعتماد سقراط على ما كان يطلق عليه اليونانيون جني سقراط، أو وحي دلفي، وهو صوت يهتف به كي يمنعه من ارتكاب خطأ ما . وقيل إن سقراط كان يعتبر هذا شكلا من أشكال الجنون المقدس، يعتبر هبة من الآلهة، لأنه جنون يمنحنا الشعر والتصوف والحب والفلسفة . ويمكن أن نسميه الآن الحدس أو العبقرية.

على الفور انطلق تلاميذ سقراط إلى العمل على تطبيق تصوراتهم لتعاليم معلمهم في السياسة، وأيضاً على تطوير الكثير من المدارس الفلسفية الجديدة . وقد واصل أفلاطون تأسيس مدرسته التي أطلق عليها اسم الأكاديمية في عام 385 ق م والتي حظيت بشهرة واسعة لدرجة أن اسمها أصبح يعني المؤسسة التعليمية في اللغات الأوروبية الحديثة . أما عن أرسطو، تلميذ أفلاطون والذي يعد من الشخصيات الرئيسة في العصر الكلاسيكي، فقد ذهب لتعليم الإسكندر الأكبر ابن الملك المقدوني فيليب وأسس مدرسة خاصة به عام 335 ق م والتي أطلق عليها اسم الليسيه، وقد أصبح هذا الاسم أيضاً يعني الآن مؤسسة تعليمية .

إن تعاليم سقراط قد كانت بمثابة ولادة جديدة لأوروبا في العصور الوسطى وكذلك للحضارة العربية الإسلامية . وقد قام الكندي أحد الفلاسفة العرب بتقديم فلسفة سقراط وحاول أن يوفق بينها وبين الدين . وقد عادت مكانة سقراط في الفلسفة الغربية بكل قوتها في عصري النهضة والعقلانية في أوروبا عندما بدأت النظرية السياسية في الظهور على السطح مرة أخرى على يد الفيلسوفين الإنجليزيين جون لوك وهوبز . بل إن فولتير كتب مسرحية هزلية عن محاكمة سقراط . ولا يزال المنهج السقراطي الحوارى يستخدم ليومنا هذا في مدارس القانون كوسيلة لمناقشة الموضوعات المعقدة أو لإعداد المرافعات .

وقد حظي سقراط بالتكريم حين تم اعتباره أبا للفلسفة، وأول شهيد لها، وقد نظر إلى سقراط من قبل خصومه كشخصية مثيرة للجدل، ولقد ظل الفكر السوفسطائي الذي هاجمه سقراط في حياته موجودا بعد وفاته، لكن سرعان ما تفوقت عليه مدارس الفكر الفلسفي العديدة .

لقد كان هناك تفضيل ملحوظ لأفلاطون أو أرسطو على سقراط لأنه ما من معلومات كثيرة متوفرة عنه أو عن أفكاره، ولم يترك أي كتاب، لذا يعتقد الفلاسفة المعاصرون بأنه من المستحيل تكوين صورة واضحة عن سقراط الحقيقي وسط كل هذه التناقضات بين تلاميذه . ويتضح ذلك من خلال أن مذهبي الكلبية والرواقية والذين تأثرا بأفكار سقراط لا يشبهان مذهب أفلاطون بل ويعارضانه . ويعد هذا التناقض بين تلاميذ سقراط والافتقار إلى موثوقية المعلومات المتوفرة عن هذا الفيلسوف أساس مشكلتنا معه . ومع ذلك لا تزال حقيقة أن سقراط هو مؤسس الفلسفة الغربية الحديثة، وقد بلغ الأمر أنه يشار إلى الفلسفة بما قبل سقراط وما بعد سقراط.